أرق النهر

. غـــازي الـذيبـــة .

غازي الذيبة
مواليد الظاهريّة (الخليل) في فلسطين المحتلة. صدرتْ له الدواوينُ الآتية: **جُمل منسيّة، دقيقة واخرج حيّاً، مفاتن الغيب، حافة الموسيقى**. كتب سيناريو عدد من المسلسلات التلفزيونيّة، من بينها: **أبناء الرشيد** (بالمشاركة مع غسان زكريا)، **ذاكرة الجسد** (عن رواية أحلام مستغانمي)، **أحمد الفاتح** (قصة تأسيس دولة).

- ١ -

على حجرٍ باردٍ في ظلال السماء
مرَّ المساءُ،
وكانت عصافيرهُ غافياتٍ قليلاً.
وعند ارتجاف الخُطى قُربَ قلبٍ قريبٍ،
تهاوت حجارتُهم من بعيد،
ورحنا إلى أرق النهر.
كان يرفرف في جريهِ إلى المسيلِ،
ويمتحنُ الصبرَ في دَفْقةِ المُنشدين:
بلادي نُحبّكِ،
فلا تخذلي الماءَ فينا!
نُحبّكِ؛
فإنْ كنتِ أقربَ منّا إلينا
وأبعدَ منا إلينا،
نُحبّكِ!
لا نستريح بغير تَلمُّسِ وجهكِ فينا
فلا تخذلينا.

- ٢ -

على حجرٍ دافئٍ في ظلال الصلاة،
وعند ارتعاشِ الندى بالجباه،
قريبًا من القهر،
عند هتافِ الطيور الطليقة،
كان النشيدُ وحيدًا على الجسر.
كان الرفيفُ رشيقًا
يُرَقّقُ أنفاسَهُ للوصول إلى النبض.
وكُنّا ننادي على الماء
والأنبياء،

على الريح في توقها للانعتاق؛
أهذا جنونُ الهواء
أم النهرُ يركض، قلنا؟
أم الشهداءُ سيطوون أجنحةً من جديد؟
وأحلامنا، آه، إذ تهتدي للطريق،
سيرفعُ فيها الرجالُ مناديلهم
ويرتفعون إلى آخر الأرض
أو أول الأرض
لا فرقَ.
كانت هنا مثلَنا تستريح وتُنشدُ،
كانت تُوزّع أطيافها في ظلال السماء.

ـ ٣ ـ

على حجرٍ شاهدٍ سيستيقظُ النهرُ،
سترتجفُ الريحُ،
تُعولُ،
تحملُ سُندسَها في ظلال الشجر
على وطنٍ لاذعٍ حين يصرخ أولادُه
يا إلهي!
ما الغناءُ الذي تتنفّسه الريحُ في جُرحك الذهبيّ؟
ومن ذا الذي كلّما اشتُقَّ من روحه قمرٌ
فاضَ في روحهِ عطرُ القمر؟

ـ ٤ ـ

على حجرٍ في ظلال البهاء،
وعند تقاطعِ قلبين،
قافلتين،
وصوتٍ شجيٍّ
وتلويحةٍ بالزغاريدِ تشدو
«بلادي أحبّكِ،»
توكّأتُ ظلّي،
وصلّيتُ يا وطني مرتين،
وناديتُ أحلامَنا في الهتاف.
خِفافًا وصلنا إلى النهر
كُنا نُغطّس أقدامَنا في القداسة:
ماءٌ،
وطهرٌ،
وقلبٌ نبيٌّ كسيرٍ
هنا قذفوه بآثامهم.
وهنا راقب الخوفَ فيهم،
وكان يُحدِّق في ما سيأتي،
وفي ما سيحمل عند التراتيل،
حين يُوزّع قمح السهولِ على الفقراء
ويُلقي مواعظَه للطيور.

ـ ٥ ـ

على حجرِ الماس
كانت تُصلّي الطيورُ الجميلةُ في قلب أحلامنا
كانت تُهدهدُ أنفاسَها في هُتاف المساء النديّ
«بلادي بلادي فِداك دمي!»
ولم يكُ لونُ المساء خفيفًا
كما تدّعي ثكناتُ الظلام،
ولم يكُ صوتُ الغمام رقيقًا.
وكانت فروعُ الحدائق
ترفع أعلامَها تحت سقف المدينة
وتُعلن أسماءها وطنًا لا يُضام.

ـ ٦ ـ

على حجرِ الضوءِ
يبزغُ مثلَ الملاكِ الرشيقِ
رأى الأنبياءَ يصيدون أسماءهم
في حقول الوسنْ
فغنّى الشبابُ وغنّى الكهولُ:
«تعيش بلادي ويحيا الوطن.»

ـ ٧ ـ

على حجرٍ نائمٍ في القوافي
رأى الصبحُ أحلامَه في الدروب
وسار على رِسْلِهِ هادئًا.
على رملهِ في الشروقِ انتحى جانبًا
ثم مالت به الريحُ.
قال لها استيقظي
أنتِ نائمةٌ.
لم تُعدّي الخيولَ لركض الصباح
ولم تَصْهلِ الكلماتُ على جرْسها في الأغاني
فنادت عليه.

كانت ذراعاهُ قافيةً
ويداه تذوبان في جيدها.
وكانت على رسلها تتهادى
وتغزلُ ثوبًا جديدًا ليومٍ جديدٍ
وتُوقظُ أحلامَها في أثيرِ المكان.
وكانت بلا خِفّةٍ تَتَروّى
وترسمُ دربًا لها في الزمان.
هنا قلبُها نابضٌ،
هنا صوتُها طالعٌ بالرياحين،
هنا ينبضُ الشعبُ بالأرجوان.
وكانت هنا
كان قلبُ المدينةِ يضحكُ هذا المساء
ويَنْدهُ من أول الطلع حتى بهاءِ الصدى.
أنا البوحُ أصعدُ يا درجات الأعالي،
وأوقظُ كلّ الطيور الرشيقة في الركض
فتأتي على نَدَهات الرجال خيولُ الندى.

- ٨ -

على سطرِ قافيةٍ
تحتفي بالهواء وترقصُ في خُضرة الصُبح،
كان السديمُ شفيفًا،
وكان الهدوءُ المُعتقُ بالصمت
يلمحُ عاصفةً من بعيدٍ.
حبيبان قُرب البعيدِ القريبِ
كانا على حجرِ النهرِ
يرتفعان
ويرتجفان
ويصطدمان ببوح الشجرْ.
هنا وطنٌ تائهٌ في اقتفاء الأثرْ،
وليلٌ طويلٌ ينامُ وحيدًا أمام النشيد.
هنا في القريبِ البعيدِ
حبيبان لم يُوقظا النايَ بعد،
ولم يذهبا في الطريق إلى الظلّ.
كانا يُعدّان أيّامنا في الشرود،
ويرتبكان بلا موعدٍ،
وينتبهان إلى غابةٍ كلّما نَوّمَ الجوعُ أبناءها
رفعتْ رأسها من جديدْ
وتحلّت بالنشيدْ.

- ٩ -

على حجرٍ دافئٍ،
تحت قائظةِ الشمس،
كانا يُعيدان للبيت شُبّاكَه،
وللشجرِ المُتناوم خَفْقَ الطيور:
على حجرٍ لم يعد خائفًا
يصعدان إلى الضوء،
يلتمسان قليلاً من التوق للانعتاق
وبعض العناقِ،
ويهتديان أخيرًا إلى الصوت
حين يُدندن أحلامَه
وحين يثورْ.

- ١٠ -

على حجرٍ يا بلادي أحبُّكِ.
كان يُرتّلُ آياتهِ في غموض الصور.
ومُندفعًا في التوقعِ كانَ،
ويهتفُ
يهتفُ
حتى يُفيقَ النهار على بُحّةٍ
أينعتْ في الشجر.
هنا صوتهُ
هنا عزفهُ
هنا يُنشدُ الماءُ والظلُ والأنبياءُ جميعًا:
«إذا الشعب يومًا»
فيرتدُّ فيه «أراد الحياة.»
تُزغرد عاشقةٌ في القفار:
«فلا بدّ أنْ»
ويردُّ الصدى: «يستجيب القدر.»

عمّان